مجلة سوسيولوجيا
ISSN 2602-5647
EISSN2661-7803
المجلد04/ العـدد: 02 (ديسمبر 2020)، ص 176- 198

البواعث العصبية في الشعر الأموي (دراسة سوسيونفسية في النقائض)

Neurosis motivations in the Umayyad poetry (Sociopsychology study in the contradictions)

يوسف ميمون[1]، فرحات عبدالرحمان [2]

YOUCEF Mimoun [1], FARHAT Abderahmane[2]

[1] المركز الجامعي أحمد بن يحي الونشريسي، تيسمسيلت، مخبر الدراسات الإفريقية للعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية،

جامعة أدرار، mimounyoucef17@gmail.com

[2] جامعة زيان عاشور، الجلفة، مخبر استراتيجيات الوقاية ومكافحة المخدرات بالجزائر،

الجلفة، mouslihlina@hotmail.com

تاريخ الاستلام:2020/03/17 تاريخ القبول: 2020/09/04 تاريخ النشر: 2020/12/27

الملخص:اختلف العصر الأموي عمّا سبقه من العصور اختلافاً كبيراً ومن أوجه عدّة, لكنّه ظلّ وفياً تقريباً لما سبقه من العصور في وجهه الأدبي وبالتحديد في الشعر، الذي ظلّ في أغلبه يصدر من بواعث نفسية وخلفيات تاريخية واحدة أساسها عصبية الفرد تجاه قبيلته وقومه، ومثلما كانت العصبية مبعث الهجاء في العصر الجاهلي، كانت كذلك في نقائض العصر الأموي، ولا يمكن للدارس أن يقف على هذه البواعث إلا أذا أحاط النقائض وأعلامها بالدرس النفسي، خصوصاً وأنّ أغلب الدراسات حصرت النقائص في كونها نشأت من أجل تسلية الجماهير.

الكلمات المفتاحية: البحث العلمي، أخلاقيات الباحث، التطور التكنولوجي.

Abstract :The Umayyad period differed greatly from what preceded it from the ages and in many ways, but it remained almost faithful to what preceded it from the eras in its literary face and specifically in poetry, which was mostly issued by psychological motivations and historical backgrounds based on the individual's nervousness towards his tribe and his people, and as it was Nervousness is the source of satire in the pre-Islamic era, it was also in the contradictions of the Umayyad period, and the learner cannot stand on these motives unless he surrounded the contradictions and taught them with a psychological lesson, especially since most studies have identified the shortcomings in the fact that they originated in order to amuse the masses.

المؤلف المرسل: فرحات عبدالرحمان ، **الإيميل**: mouslihlina@hotmail.com

مقدمة:

تعوَّدَ العرب منذ العصر الجاهلي؛ أن ينوهوا في أشعارهم بأشرافهم وذوي النباهة منهم, وذلك عصبيّة منهم لقبائلهم، فيتحدثون من خلال ذلك عن خصالهم النبيلة من كرم وشجاعة وحِلم ووفاء وحماية للجار، وقد كان السيّدُ فيهم لا يُعَدُّ سيدا كاملاً إلاَّ إذا تَغنَّى بنباهته ومناقبه أكثر من شاعر، وظلّت هذه السُنَّة عندهم في صدر الإسلام، وظلّ بذلك التنافس بين الأسياد حول من يحض بشاعره الخاص الذي يشيد به، فيكون دعايته بين الناس، ولا نكاد نصل إلى عصر بني أمية حتى نجد الخلفاء يستثمرون في هذه الفكرة العصبيّة، ويمضون في سُنّة سابقيهم مع تغيُّر طفيف في المقصد، فبعدما كان الهدف من ذلك نيل استحقاق السيّادة في القبيلة، تحول الهدف إلى نيل استحقاق الخلافة على المسلمين.

لقد اختلف العصر الأموي عمّا سبقه من العصور اختلافا كبيرا ومن أوجه عدة، إذ يَعد انتقال الدولة الإسلامية إلى بيت الأمويين منعطفا عظيما في تاريخ الإسلام، فبعدما كانت الخلافة في زمن الخلفاء الراشدين خلافة دينية قائمة على الشورى، تحوّلتْ في أيام بني أمية فأصبحت وراثية، وعلى الرغم من كلّ الخلافات التي قامت بسبب هذا الانتقال، بين سيدنا معاوية ﷺ وبين أعمام النبي صلَّ الله عليه وسلم وأبناء عمه حول البت في أمر الخلافة، إلاَّ أن معاوية تمكن بدهائه وسِعة صدره من التغلب عليهم جميعا مؤسسا الدولة الأموية.

تأسيس هذه الدولة في البداية، كان في حاجة إلى أن يُؤيِّدَ معاوية سلطانه حتى يُثَبِّتَ أقدام دولته، ومن أجل ذلك فقد نحا نحوا غريبا كان الإسلام قد دثره وحدّ منه، لكنَّ سيّدنا معاوية أبى إلاَّ أن يستند عليه كونه الوسيلة الوحيدة الناجعة من أجل أن يُثَبِّتَ سلطانه على الدولة.

ولأنَّ العصبية كانت في الجاهلية بين القبائل تقوم على أساس الأنساب، فقد وجدت هذه القبائل نفسها قد وقعت في قبضة قريش وبطونها، فحزَّ ذلك في نفوسهم وغَصُّوا به لما يرون لأنفسهم من التقدم بأنسابهم، وعادت بذلك الحساسية ونمت الضغائن في النفوس، وظهرت بوادر عودة العصبية إلى نحو ما كانت عليه في الجاهلية.

كما قام الصراع السياسي بين الأحزاب, قام كذلك الصراع الأدبي بين شعرائهم فالتحمت الألسن وراح كل شاعر يذود بما جاد به لسانه عن قومه وحزبه, وقد يظهر لمتلقي هذه الأشعار أن بواعثه حزبية بحتة، أو أنّ الدفاع عن القبيلة لطالما كان بوجه حق يتمثل في خلافة المسلمين، لكنّ الدارس للتاريخ الجاهليّ وما قبله بكثير، يدركُ أنّ لما قام من خلافات في هذا العصر بواعث نفسيّة متأصلة في الفرد العربيّ أساسها العصبيّة أي: عصبية الفرد لقومه، ونحن من خلال هذه الدراسة نسعى إلى الكشف عن هذه البواعث وإسقاط التاريخ الجاهليّ على فترة معيّنة من العصر الأموي، وبالتحديد فترة ظهور فن النقائض الشعرية، ومن أجل ذلك فإننا وقبل أن نخوض في عرض هذه الدراسة؛ لابدّ لنا من طرح بعض الأسئلة التي يمكن من خلالها أن نمهد للموضوع بشكل أوضح

ما علاقة نفسية الشاعر بظهور فن النقائض؟ وما دور العصبية فيها. خصوصا وأنّ كثيراً من الدارسين رجّحوا أن التسلية كانت الباعث الأساسيّ لها! وهل لتاريخ أعلامها علاقة بما وقع من تشابكات عصبيّة في العصر الأموي؟

ومن أجل الإجابة على هذه التساؤلات فقد كان عرضنا لهذه الدارسة وفق المخطط التالي: أن نبدأ في عرض بعض من الأطروحات والمفاهيم حول العصبيّة، من خلال تعريفها اللغوي والاصطلاحي، وكذا إيراد

ما تناولته الدراسات الحديثة حولها، منتقلين بعد ذلك إلى فن النقائض الشعرية بداية من ظهورها إلى بعض شواهد أعلامها خاتمين بالبواعث الحقيقية لها، والله وليّ التوفيق.

أولا: العصبيّة لغةً ودلالةً

أ/ تعريف العصبيّة لغةً:

العصبيّة في اللغة: مشتقة من " العصب " وهو الطيّ والليّ والشد، وضمُّ ما تفرّق من الشجر، وعصبَ الشيء عصبًا: "طواه ولواه " وقيل شدّه[1]، ومنه عصبتَ الشجرة إذا ضممتَ أغصانها[2]، ثمّ ضربتها ليسقط ورقها، قال الحجّاج: (لأعصبنّكم عصبَ السّلمة[3])

والعَصَبَة: الأقارب من جهة الأب، وعَصبة الرجل: أولياؤه الذكور من ورثته، سمّوا عَصبة لأنهم عَصبوا بنسبه، أي: أحاطوا به، فالأب طرف والابن طرف، والعمّ جانب والأخ جانب، والجمع عَصبات، والعربُ تسمّي قرابات الرجل: أطرافه، ولمّا أحاطت به هذه القرابات وعَصبتْ بنسبه سمّوا عَصبة، وكلّ شيء استدار بشيء فقد عصب به[4].

والعُصْبة بالضمْ: من الرجّال والخيل والطّير، ما بين العشرة إلى الأربعين وتعني الجماعة، من قوله عزّ وجل:{ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} سورة يوسف، الآية 8 .

وتعني كذلك الجماعة ومنه حديث[5]: (اللّهم إنْ تُهلك هذه العِصابة من أهل الإسلام، لا تُعبد في الأرض)، ومن معانيها نذكر[6]:

-الاجتماع على الشيء الواحد، والعُصبة هم الأقارب من جهة الأب لأنّهم يعصبونه ويتعصّب بهم، أيْ: يحيطون به ويشتدّ بهم، والعَصَبَةُ واحد العَصَبْ، وهي أطناب المفاصل، وهم كذلك بنو الإنسان وقرابته لأبيه.

-المحاماة والمدافعة والنُصرة، والعصبيّة والتعصّب: المحاماة والمدافعة، وتعصّبنا له أو معه أيْ: نصرناه، وقيل للرجل الذي يغضب لعُصبته ويحامي عنهم ويعينهم ولو على الظلم: عصبيّ.

ب/ العصبيّة دلالة:

العصبيّة أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته، والتألّب معهم على من يناوئهم[7]، ظالمين كانوا أو مظلومين، وقد تعصّبوا عليهم إذا تجمّعوا، فإذا تجمّعوا على فريق آخر قيل تعصّبوا، وفي الحديث، العصبيّ من يعين قومه على الظلم، وهو من يغضب لعصبته ويحامي عنهم.

وعرّفها الدكتور محمد عابد الجابري بأنّها[8]: رابطة اجتماعية سيكولوجية، شعورية ولا شعورية معًا، تربط أفراد جماعة ما، قائمة على القرابة ربطاً مستمرّا، يَبرزُ ويشتدُّ عندما يكون هناك خطر يهدّد أولئك الأفراد كأفراد أو جماعة.

وعرّفها ابن خلدون بأنّها[9]: " النَعرة[10] "على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم مهلكة، ومن هذا الباب، الولاء والحلف، إذ نَعرة كلّ أحد على أهل ولائه وحلفه.

ومن الباحثين من فسرّها بأنّها[11]: رابطة الدّم، أو تكاتف اجتماعي أو تضامن قبليّ، وبأنّها التلاحم بالعَصب والالتصاق بالدم والتكاثر بالنسل، ووفرة العدد والتفاخر بالغلبة والتطاول.

ومن العصبيّة إعانة قومك على الظلم، ومنه الانتصار للقبيلة بغير وجه حق شرعي، كما جاء في حديث زياد بن الربيع قال[12]: حدّثنا عبّاد بن كثير الشامي من أهل فلسطين عن امرأة يقال لها: فسيلة، أنّها قالت: (سمعتُ أبي يقول: سألتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقلتُ: يا رسول الله، أمِنَ العصبيّة أن يحبَّ الرجل قومه؟ قال: لا، ولكن من العصبيّة أن ينصر الرجل قومه على الظلم).

تورد الدكتورة زينب الخضيري في مؤلفها (فلسفة التاريخ عند ابن خلدون) نصا لهذا الأخير من مقدمته، يبيّن من خلاله أنّ العصبية قد لا تشمل فقط أولئك الذين تربط بينهم رابطة الدم فحسب، بلد قد تتوسع كذلك فتشمل أيضا أهل الولاء والحلف، يقول النص[13]:

" إذا اصطنع أهل العصبيّة قوما من غير نسبهم، أو استرقوا العبدان والموالي والتحموا به ... ضرب معهم أولئك الموالى والمصطنعون بنسبهم في تلك العصبية، ولبسوا جلدتهم كأنّها عصبتهم، وحصل لهم من الانتظام في العصبية مساهمة في نسبها، كمال قال صلّى الله عليه وسلم موالي القوم منهم "

هذا النص يحيلنا إلى أن نذكر بعضا من أنواع العصبية في تعريفها ومعناها الأصليّين، وكذلك في حال ما سلّمنا إلى نظرة ابن خلدون الموسعة حولها فنجد[14]:

- عصبية القرابة والنسب وهي أقواها
- عصبيّة الحلف نتيجة انفصال الفرد من نسبه الأصلي وانضمامه إلى نسب آخر
- عصبية الولاء والتي تنتج عن انتقال الفرد من نسبه إلى نسب آخر نتيجة ظروف اجتماعية، وفي هذه الحالة تكون نتيجة طبيعية للصحبة والعشرة التي تنجم عن انضمام الفرد للنسب الجديد.

- عصبية الدخالة والتي تنتج عن فرار فرد من نسبه وقومه ودخوله نسبا آخر
- عصبية الرق والاصطناع وتنتج عن ارتباط العبيد والموالي بسادتهم

ج/ بعض المفاهيم الحديثة للعصبية:

لقد احتوت الكثير من الدراسات الحديثة وخصوصا علم النفس، على الكثير من المفاهيم الدالة على العصبيّة، ومن ذلك حين صنفوها كسلوك نفسي وطوّعوها من خلال دارساتهم وإسقاطاتها على الأفراد, وصاروا بذلك يوجزونها في مصطلح " التعصّب" كإسقاط فرديّ نفسي.

سيكولوجيا يعرف التعصّب (prejudice) بأنّه " اتجاه نفسي مشحون انفعاليًا، أو عقيدة أو حكم مسبق مع أو في (الأغلب والأعم) ضدّ جماعة أو شيء أو موضوع، ولا تقوم على سند منطقي أو معرفة كافية أو حقيقة علمية، بل ربما يستند إلى أساطير وخرافات، فيما يرى آخرون أنّه: أحكام مسبقة غير قائمة على دليل على شخص أو جماعة محبوبة أو مكروهة، مع الميل إلى القيام بسلوك يتفق مع هذه الأحكام، ويوصف أيضا بأنّه: " نمط من العداء في العلاقات بين الأفراد وهو موجه ضد جماعة ككل أو إلى أفرادها، وهو يشبع وظيفة غير منطقية معينة في صاحب هذا الاتجاه[15]

مرّ مفهوم التعصب بثلاث تغيرات في معناه، فقُصد به مبدئيا الحكم المسبق القائم والمدعم بخبرات ودلائل فعلية، ثم أخذ معنى الحكم المسبق المطلق قبل فحص النتائج والأدلة والحقائق، ثم اكتسب بعد ذلك خاصية الانفعالية الإيجابية أو السلبية التي ترافق الحكم المسبق الذي يخلو من الحقائق والأدلة، وممّا يذكره بعض علماء النفس الاجتماعي حول التعصب[16]:

ألبورت: التفكير السيء عن الآخرين دون وجود دلائل كافية

إيرليك: اتجاه عرقي يتسّم بعد التفضيل

مارون وماير: التعصب اتجاه يتسم بعدم التفضيل ضد جماعة معينة يحط من قدرها ومن قدر كل أعضائها، ويضيف نيوكمب وآخرون: اتجاه يتسم بعدم التفضيل يمثل استعداداً للتفكر والشعور والسلوك بأسلوب مضاد للأشخاص الآخرين بوصفهم أعضاء في جماعات معيّنة

ويشكل التعصّب سمة من سمات شخصية الإنسان، وذلك كما أشارت دراسة (أرجيل Argyle. 1961) حيث يميل المتعصب إلى العنف، ويدخل في الأحزاب والتنظيمات المتطرفة، وتتميز شخصيته بالعدوانية وعدم تقبّل الآخرين، ويهتم بالمنزلة الاجتماعية، ويعمل على حبّ الظهور من خلال امتلاكه للسيطرة والقوّة، وتتميز شخصيته بثلاثية العدوان والقلق والهدوء، الذي يتحول فيما بعد إلى تهميش وإقصاء وتسلطية ضدّ الجماعات الأخرى وقد درج علماء النفس على تسمية خمس درجات تعبر سلوكيا عن التعصّب[17]: " أسلوب كلامي معارض (Antilocution) أو التعبير اللفظي الحاد (Antipathy) والتجنب والتمييز عن طريق استثناء أعضاء الجماعة المقصودة من بعض الحقوق الاجتماعية، والعدوان الفعليّ (physical Attack)، والقتل (Extremination) "

الخمس درجات التي وضعها علماء النفس من أجل تحديد نوع التعصّب في السلوك الإنساني، تجعلنا نقرّ بمدى صحتها، خصوصا وموضع الدراسة التي نحن بصددها، فالفرد العربيّ القديم له من هذه الدرجات ما له، فهو إن كان شاعرا عبّر بدرجتي الأسلوب الكلامي المعارض وبتعبيره اللفظي الحاد، وإن

كان فارسا جسّد تعصبه بالعدوان الفعليّ الذي يؤول إلى القتل في الغالب، وإن كان فردا بسيطا داخل قبيلته، ميّز واستثنى غيره من بعض الحقوق الاجتماعية رفعةً له.

وتشير الكثير من الدراسات إلى أنّ التعصب مكتسب، فلا أدلة تشير إلى أنه غريزي أو فطري في النفس الإنسانية، ولكنّه مكتسب متعلم كنتاج اجتماعي، تسهم عوامل معيّنة في بلورته، وتأتي على رأسها عوامل التنشئة الاجتماعية والتي تختلف درجات التعصّب وفقها بحسب الاختلافات في نفس الفرد وتجابه المتعددة [18]

ومنه فإنّ التعصب ينمو مع الفرد تدريجيا، من خلال عدم التلازم مع الجماعات الأخرى، الأمر الذي يجعل الفرد يُلصق فيها ما يشاء من تهم تؤدي إلى تكريس العصبية لديه، فالتعصب موجود في الشخصية منذ الطفولة إذ يتمحور حول الذات، ثم تنعكس عند الاندماج مع الجماعة، وبعد ذلك تتضح بصورة جلية ما بين الجماعات، خصوصا إذا ما لعبت الظروف الخاصة بالتنشئة الاجتماعية دورا في تعزيز وتعميق الاختلافات بين الجماعات، وعلى اعتبار أنّ الجماعة من وجهة نظر نفسية تعني الاتحاد لمجموعة من الأفراد في الأحاسيس والمشاعر، من أجل تحقيق أهداف معينة، تتقلب فيها طرق التحقيق، وتزداد فيها حدّة المشاعر، فإنّ الفرد من خلال ذلك يعملُ على تهميش وتعطيل القدرات الشخصية الفردية لصالح الجماعة، ومن هنا ندرك عدم توفر العقلانية كمورد للتعصب على اعتبار أن المجاراة هي التي تلعب الدور الأكبر في تعزيزه وتعميقه[19]

يبدوا أن الفرد يتوكأ على قبيلته وجماعته لما توفره من إشباع حاجاته النفسية من مثل الانتماء وشعور الفرد بوجود ناصر له، وكذلك الحاجة إلى الأمن بإزالة عوامل التهديد الشخصي، والالتقاء نحو

تحقيق الهدف المشترك ووفق ما جاء، فالجماعة تشكل الإطار المرجعي الذي يحدث في داخله التفاعل الاجتماعي، ويشكل السلوك الذي يقوم على وجود معايير مشتركة الأساس التنفيذي المعبر عن وحدة الجماعة، فللمعايير دور في تحديد السلوك المقبول، والتي يحدد من خلالها العقاب على الفرد الذي يخرج عنها، فالسلوك هو مجموعة من العادات التي تحدد نوعية العوامل والأنشطة التي يمارسها الفرد[20].

هذه السمات تؤدي في النهاية إلى اضطراب في الشخصية يحيل صاحبها إلى التعصب، فالمتعصب يخاف من فقدان مركزه الاجتماعي، حيث يتوهم بذلك أو حين يفقده فعلا، ولذلك فإنه يميل إلى العدوان الذي يقوم من خلاله بإلحاق الأذى بالآخرين، إما بالإيذاء الجدي أو اللفظي.

د/ نظرية الصراع بين الجماعات:

من النظريات العلمية المفسرة للاتجاهات العصبية نظرية الصراع بين الجماعات[21]: وتؤكد هذه النظرية على عوامل البيئة الثقافية في بروز الاتجاهات التعصبية، ويفترض أنّ العوامل التي تقود لتكوين الاتجاه التعصبي يرتبط وظيفيا بعضوية الشخص في جماعة معينة والتي يتبنى معاييرها، ويعتمد عليها في تكوين وتنظيم خبراته وسلوكه وتنقسم هذه النظرية إلى:

– نظرية الصراع الواقعي بين الجماعات: وتقوم هذه النظرية على أنّه حين يحدث صراع بين جماعات معينة لأي عوامل تهديد خارجي، فإنّ ذلك مدعاة لوجود مشاعر العداء فيما بينهم، وهذا النوع من أشكال التعصب لا يمكن التخلص منه إلا أنه من الممكن التخفيف منه؛ لأنه ينشأ وفق حدث واقعي.

– **نظرية الصراع بين الريف والحضر** (Rural - Urban conflict)، تفترض هذه النظرية أن منشأ التعصب يرجع إلى الخوف التقليدي والعداوة المتبادلة بين أهل الريف والمدينة، فالتشكيك والتهديد والحذر مميزات للحياة الحضرية المدنية، التي تؤدي لوجود مشاعر الاستياء والكراهية للجانب الآخر.

– **نظرية الحرمان النسبي**: تعترف هذه النظرية أن الحرمان النسبي لشخص دون غيره، يؤدي إلى تكوين التعصب لديه.

– **نظرية التهديد الجماعي في مقابل الاهتمام الفردي**: إن الشعور الجماعي للأفراد بمصيرهم العام، وبأنهم مستهدفون من قبل جماعة أخرى، يؤدي بالضرورة إلى تكوين اتجاهات تعصبية لديهم.

مع كلّ ما مرّ بنا من أطروحات ومفاهيم للعلماء والكُتاب لمصطلح العصبيّة قديماً وحديثاً، فإننّا نجدُ أنّها في مجملها لا تخرج عن معنيين أساسيّين هما: الاجتماع والتناصُر، سواء كان هذا التناصر والاجتماع على وجه حق، أم على باطل، كذلك نجد أنّ العصبية قد لا تشمل القرابة بالدم فقط وأنّ لها أنواع كثيرة تأتت للباحثين في الميدان الاجتماعي، الذين وسّعوا لهذا المفهوم حين ربطوه بالحالة النفسيّة والفكرة في حد ذاتها.

ثانيا: بواعثً النقائض بين العصبية وتصوير الواقع السياسي.

أ/ ظهور النقائض

بعد اندلاع العصبية بين القبائل في عصر بني أمية، وبعد أن سعّر الهجاء القبائل وشعرائهم، تكتلت هذه القبائل في البصرة والكوفة، وتقابلت القبائل اليمنية مع القبائل المضرية، وراحت كل قبيلة تنظر في نفسها وفيما كان بينها وبين غيرها قديما من أيّام وحروب، فَتُرجِمَ كلّ هذا التقابل شعرا وإن شئت قل استحال هذا التقابل هجاءً، فأصبح كلُّ شاعر قبيلة يسعى جاهدا كي يرمي القبيلة القديمة، والتي تصادف أن نافست قبيلته في الجاهلية بحجر من حجارة القذف أو سهم من سهام الهجاء، فيستشيط بذلك شاعر القبيلة المعادية غضبا، ويسعى هو الآخر من أجل أن يَرُدَّ بالمثل، فتراه هو الآخر يبحث عن سهم قاتل كي يرد به كيد صاحبه.

لقد أوجدت المنافسات القبلية عند العرب على مياه الغدران والمراعي، الهجاء في الشعر العربي منذ الجاهلية، كذلك الحروب المستمرة بين القبائل وبطونها وغصونها، فكانوا يقتتلون ويتهاجون هجاء مرا، إلى أن جاء الإسلام فخفّف من وطأته، لكنّه لم يستطع أنْ يُنسي العرب عصبياتهم، ولا أن يمحوها بشكل نهائيّ، وما لبثت بعد خمودها أن عادت إلى الاشتعال وظلت تتأجَّج طوال عصر بني أمية[22].

فالمعطيات والتحوُلات التي عرفها هذا العصر، مهدَّت لظهور فن جديد سمّي بالنقائض، ولسنا هنا نريد بالنقائض من حيث جانبها اللغوي، أو كفنّ شعري مستقلٍ نودّ تعريفه، فقد فاضت الكتب في تعريف هذا الفن، لكننا نريد أنْ نوضح كيف ارتدت العصبية في الشعر ثوب هذا الفن الجديد القديم في

نفس الوقت، – ونقول قديم –كون أنَّ النقائض كانت تقليدا واضحا للمعلقات من وجهها الأدبي، تقليدا في شكل القصيدة وفي كثرة أغراضها وطول نفسها، وفي كثير من خصائصها الأخرى، كالفخر بالأنساب والهجاء القبلي[23].

لقد كان العرب في هجائهم قديما يُعَبِّرونَ عن رغبات عصبيّة مُقَيَّدَةٌ بحروب وأيَّام، فجاء الإسلام كما ذكرنا وحوَّلَ هذه الرغبات لبعض الوقت إلى رغبات دينية، فلمَّا جاء العصر الأموي واستقرت القبائل في مدينتي البصرة والكوفة، عادت العصبيات القديمة جذعة، وصارت هذه القبائل تجتمع وتحتشد في المربد وفي الكناسة حول الشعراء، يستمعون منهم إلى ما ينشدونه من هجاء[24].

ومن المعايير الأساسية التي كانت تُختار من أجلها النقيضة وتُفضَّلُ على غيرها، أن تكون طويلة ويفتخر فيها الشاعر بنفسه وبقومه وبفضائل نفسه، كالشعر والكرم والشجاعة ثم بأحساب قومه، وينتقل بعد ذلك ليذكر الحروب التي انتصر فيها قومه والعهود التي وفوا بها والمحاسن التي أتوها، والواضح هنا أنَّ تَقَيُّدَ لسان الشاعر بهذه الشروط، كان نفسه في العصر الجاهلي حين يريد الشاعر آنذاك أن يهجو أو أن يحط من قدر قبيلة غير قبيلته، ومثلُ هذه الشروط ما حاول الإسلام الكف عنها.

وبعد أن يتناول الشاعر مناقب قومه، يشرع في البحث عن عيوب خصمه أو قوم خصمه جميعا، فيهجوهم قبليا ويُذَكِّرُهُمْ بالعَيِّ والبخل والجبن، ويحطُّ من نسبهم حقا أو باطلا، ويُذَكِّرُهُمْ كذلك بالحروب التي انهزموا فيها[25]، وهذا ما يبعثُ على تجديد وإحياء الضغائن في النفوس في كلّ مرّة.

لا يمكننا الفصل بين تصوير فن النقائض للصراع السياسي في العصر الأموي، وبين تصويرها وإعادة بعثها للصراعات والعصبيّات القديمة، فلقد مثَّلت النقائض جانبا من العصر الأموي، وبالتحديد ذلك

الجانب المضطرب بالتنازع على الخلافة، وإن دلّت النقائض على شيء في هذا العصر، فإنّما تدل على أنَّ الحميّة والعصبيّة الجاهلية ظلّتا ذا أثر في النفوس حتى بعد انتشار الإسلام، وكما صوَّرتْ النزاع السياسي في أمر الخلافة، فإنها كذلك صوَّرتْ أساس هذا النزاع والذي تمثل في الشعور العصبيّ للقبيلة الذي بُعث من جديد، وذلك حين وقف القيسيّون (أنصار عبد الله بن الزبير) موقف المناوئ لليمانيين (أنصار بني أمية).

ب/ تمظهرات العصبية في شعر النقائض

وسنقتصر على تناول بعض المقطوعات فقط، ذلك أننا لسنا بصدد دراسة النقائض كفن شعري كما سبق وذكرنا، بل ذلك من أجل تأكيد القراءات السابقة والخلفية الحقيقية لهذا الفن.

ومما سنورده افتخار الفرزدق على صاحبه جرير فخرا عارما بتميم، مستعملاً في ذلك أسلوبا التحقير والانتقاص من شأن الآخرين حين يقول[26]:

فيا عجباً حتَّى كليبٌ تَسُبُّني * كأنّ أباها نَهشَلٌ أو مُشاجعُ**

لقد كان الأخطل في نقائضه مع جرير يذمُّ عشيرته، رامياً بكلِّ ما يستطيع من نبال الذل والخسة والدناءة وهو يتحدث عن مواقع تغلب مع قيس، كما يضم فخرا بأيّامها في الجاهلية، وكان جرير يرد فينقض عليه كالصقر الجارح، فيضع تحت عينيه مخازي تغلب وهزائمها في حروبها مع قيس سواء في يوم "ماكسين" الذي نكَّل بها فيه عمير بن الحباب، أو في يوم "الكحيل" الذي نكَّل بها فيه زفر بن الحارث، أو في يوم "البشر" الذي نكَّل بها فيه الجحاف السلمي، ضاماً إلى ذلك انتصارات قبيلته يربوع في الجاهلية وملججا في هزائم تغلب قبل الإسلام فيقول جرير[27]:

نحنُ اجتبينا حياضَ المجدِ مُترعةً * مِنْ حَوْمَةٍ لمْ يُخالطْ صفوُها كَدَرُ**

لــمْ يُخْزِ أوَّلَ يُربــوعٍ فوارسُــهمْ * ولا يَقَالُ لهمْ كــلاَّ إذا افتَخــَروا**

هل تعرفــون بذي بَهْدَى فــوارسَنا * يومَ الهُذَيْلِ بأيدي القــومِ مُقْتَسَرُ**

خابتْ بنو تَغْلِبٍ إذا ظــلَّ فارطُهم * حوض المكارمِ إنَّ المجــدَ مُبْتَدَرُ**

ونجده كذلك يستحقر ويحطُّ من حسب الأخطل حين يقول[28]:

قَبَّحَ الإلهُ وجوهَ تَغْلِبٍ كلَّما * شَبَّحَ الحجيجُ وكَبَّروا إهلالا**

ولو أنَّ تَغْلِبَ جَمَّعَتْ أَحْسابَهَا * يوم التفاضُلِ لمْ تزنْ مثقالا**

لا تطلبنَّ خؤولــةً في تَغــلبٍ * فالزِّنْجُ أكرمُ منهم أخــوالا**

ويقول الأخطل في رد له على جرير[29]:

ولقد تناسبتم إلى أحسابكم * وجعلتم حكما من السلطان**

فإذا كليب لا تساوي دارما * حتى يساوى حزرم بأبــان**

وإذا جعلت أباك في ميزانهم * رجحوا وشال أبوك في الميزان**

إذا ما تفحصنا دواوين شعراء النقائض، فإنّنا سنجد بأنّ مذهبهم لم يختلف عن المذهب الجاهليّ، وظلّ على عهده في طعن المآثر والحطّ من نسب وقدر القبائل الأخرى، بدافع من العصبيّة القبليّة وفي ذلك نورد بعضا مما انتقيناه من دواوينهم لنتمثل بقاءهم على العهد القديم:

نتمثل ذلك في قول الأخطل في تيم[30]:

وكنت إذا لقيت عبيد تيم * وتيما قلت أيهما العبيد!**

لئيم العالمــين يسود تيما * وسيدهم وإن كرهوا مسود**

وكقوله كذلك في هجاء كليب بن يربوع[31] :

بشر الصحاب وبئس الشرب شربهم * إذا جرى فيهم المزّاء والسّكر**

قوم تناهت إليهم كل مخزية * وكل فاحشة بنت بها مفر**

الآكلون خبيث الزاد وحدهم * والسائلون بظهر الغيب ما الخبر**

وأقسم المجد حق لا يحالفهم * حتى يحالف بطن الراحة الشعر**

و هجائه أيضا لقوم جرير[32]:

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم * قالوا لأمهم بولي على النار**

فتمسك البول بخلا أن تجود به * وما تبول لهم إلا بمقدار**

لا يثأرون بقتلاهم إذا قتلوا ولا يكرّون يوما عند إحجار

وقوله كذلك يهجو جريرا[33]:

وإذا تعاظمت الأمور لدارم * طأطأت رأسك عن قبائل صيد**

وإذا وضعت أباك في ميزانهم * رجحوا عليك وأنت غير حميد**

وإذا عددت قديمك وقديمهم * أربوا عليك بطارف وتليد**

وإذا عددت بيوت قومك لم تجد * بيتا كبيت عطارد ولبيد**

وإنّنا إذا ما تركنا هجاء الأخطل لجرير وجدنا كذلك أنّ أشهر أهاجيه إنما قالها في أغراض قبليّة أو سياسية، ومن تلك الأهاجي المأثورة قصيدتان تلخصان مذهبه، الأولى في هجاء القبائل القيسية ومطلعها[34]:

ألا يا اسلمى ياهند هند بنى بكر * وإن كان حيّانا عدى آخر الدهر**

والأخرى في مدح عبد الملك بن مروان وذم خصومه من التميمين مطلعها[35] :

خف القطين فراحوا منك أو بكروا * وأزعجتهم نوى في صرفها غِيَرُ**

ومن قوله وهو يستغل السياسة ليحقق أغراضه القبليّة لتنال بذلك قبيلته الحظوة والمكانة عند الخليفة[36]:

بني أمية إني ناصح لكـــــــــــم * فلا يبيين منكم آمنا زفــر**
فإن مشــهده كفـــــــر وغائلـــة * وما يغيب من أخلاقه وعــر**
إن العداوة تلقـــــاها وإن كنـــــت * كالعر بكمن حينا ثم ينتشر**
أميـــة قـــد ناضلت دونكـــم * أبناء قوم هم آووا وهم نصروا**
وقيس عيــلان حتى أقبلوا رقصــا * فبايعوك جهارا بعد ما كفروا**
ضجوا من الحرب إذ عضت غواربهم * وقيس عيلان من أخلاقها الضجر**

وكقوله في كيب بن يربوع [37]:

بئس الصحاب وبئس الشرب شربهم * إذا جرت فيهم المزّاء والسّكر**

كان الفرزدق يذهب في هجائه مذهب الفخر بآبائه، فيعدد أيامهم الظافرة، ويجدد مفاخرهم الغابرة، تماما كما كان يفعل الشاعر الجاهلي إذا ما تعصّب وأراد أن يقدّم قبيلته من أجل تأخير غيرها ومن ذلك قوله المشهورة مطلعها[38]:

إن الذي سمك السمـاء بنى لنا * بيتا دعـامه أعز وأطـــول**

وقوله جرير في هجائه للأخطل[39] :

والتغلبي إذا تنحنح للقرى * حك استه وتمثل الأمثالا**

أنسيت يومك بالجزيرة بعدما * كانت عواقبه عليك وبالا**

حملت عليك حماة قيس خيلها * شعثا عوابس تحمل الأبطالا**

ممّا يدلّ على أن الهجاء كان في ومن أجل القبيلة ردّ جرير حين قال له أحدهم: إنّ الطرماح قد هجا الفرزدق، وقد كبر وضعف، فهل أجبت عليه؟ فردّ جرير: صدى الفرزدق يفيء بطيء كلّها، وقد أردت ذلك فخفت أن يقال: اجتمعا فحلا مضر على مخنث طيء[40].

هجاء هؤلاء الأقران الثلاثة إذا استثنينا منه المعاني الجديدة واللهجة الشديدة والتصوير البارع، لم . يخرج عن سمت الجاهليين، فتجد الواحد منهم يبدأ بوصف الطلل والغزل، ثمّ ينتهي إلى إبراز عصبيّته في المفاخرة والمنافرة، وتلمس العيوب من خبايا الماضي،

ج/ البواعث الرئيسة والحقيقية في الخصومات القائمة بين شعراء النقائض

من خلال بحثنا في فن النقائض وما ورد في شعر أعلامه، ومن خلال كذلك إسقاط تاريخ قبائلهم يمكننا أن نوجز على شكل نتائج بعض القراءات التي نوضح من خلالها البواعث النفسية العصبية الرئيسة والأسباب الحقيقية في الخصومات القائمة بين هؤلاء الشعراء:

- أنَّ يربوع عشيرة جرير وقفت مع قيس وحاربت في صفوف مصعب ابن الزبير ضد عبد الملك بن مروان، ومنه فإنَّ هذا الحادث السياسي قَرَنَ يربوعا وشاعرها جريرا مع قيس منذ أنْ غَلبَ ابن الزبير على العراق، ونفس الحادثة جعلت من الفرزدق يقف ضد ابن الزبير ويتعصَّبُ لقومه ضد القيسيين، لأنَّ قومه من قتلوا الزبير بعد موقعة الجمل.
- أنَّ جريرا التميمي تعصَّبَ لعشيرته يربوع الأقرب والتي ناصرت قيسا، فصار قيسيا بذلك، والفرزدق التميمي عُدَّ من أسباب خصومته مع قيس وشاعرها جرير، كونه عَدَّ يربوع من تميم خائنة للقبيلة بعد موقفها مع ابن الزبير، ووقوفها معه ضد الأمويين.

- ممَّا أذكى الخصومة بين قيس وتميم هو إيقاع عبد الله بن خازم السلمي القيسي بتميم وهو صاحب خراسان في عهد ابن الزبير سنة 65 للهجرة، ما أنشبَ الخصومة بين قيس وتميم منذ هذا التاريخ.
- نفس المنافسة القديمة على مياه الغدران والمراعي عادت لتولد من جديد، فحين خرجت قيس للجهاد والفتح في الإسلام، نَزَلَ كثيرٌ منهم في الشام حيث كانت تغلب، فامتدت غصونها وفروعها إلى منازل تغلب قوم الأخطل، فتزاحما على العيش والمنازل، ولذلك نجد كيف أنَّ الضغينة ظلَّت قائمة في نفوس التغلبيين، ما جعلهم ينضمون للقبائل اليمنية ضد قيس حتى تخرجهم من بلادهم.

وكمثل عن القراءة السابقة فإنّنا نجد الأخطل يمارس التحريض ويحمل في قصيدته "خف القطين" على زفر بن الحارث زعيم قيس، والذي كان ضدّ بني أمية قبل أن يدخل في طاعتهم في حربهم مع ابن الزبير فنجده يقول محرضا[41]:

بني أمــيَّة إنِّي ناصــحٌ لَكُمُ * فـلا يبيتَنَّ فيكُمْ آمـناً زُفَـرُ**

مفترشا كافتراش اللّيثِ كَلْكَلَهُ * لوقعةٍ كائنٍ فيــها لـه جَـــزَرُ**

ثم يضيف[42]:

واتَّخِـذوهُ عَــدُوًّا إنَّ شَاهِـــدَهُ * وما تَغَيَّبَ مِنْ أَخْلاقِهِ دَعَرُ**

إنَّ الضَّغينة تلقاها وإنْ قَــدُمَتْ * كالعرِّ يَكْمُنُ حيناً ثمَّ يَنْتَشِرُ**

قال الأخطل ثمّ روى على لسان زفر لعبد الملك محرضاً إيّاه عليه حين قال[43]: كيف تُجلسُ عدوّ الله هذا معك على السرير وهو القائل بالأمس:

وقدْ ينبتُ المرعى على دَمِنِ الثَّرى * وتبقى حزازتُ النُّفوسُ كما هيا**

- بعد هزيمة قيس في مرج راهط، عادت للانتقام من تغلب بسبب موقفها المناوئ في هذه الوقعة، فتجمعت جماهيرها في الموصل تحت قيادة زعيمها زفر بن الحارث الكلابي وإمرة عمير بن الحبّاب السلمي، وأخذتْ تُغيرُ على كلب من جهة وتغلب من جهة أخرى، وصَلِيَتْ تغلب نيران هذه الغارات التي كان ينظمها عمير[44].

كل هذه البواعث العصبيّة أذكت نار العصبية القبلية كي تعود على حال ما كانت عليه في الجاهلية، فحتّى ألسنة الشعراء لم يلجمها الإسلام وتعاليمه كي تتجنب ما نهى عنه، وقد حاول بهذا النهي والتحذير أنْ يئِدَ العصبية بين قبائل العرب.

***خاتمة :**

في الأخير ومن خلال إحاطة النقائض بالدرس النفسي، نجد أنّ العصبيّة باعث نفسيّ رئيس فيما كان من شعر النقائض، ولذلك فإنّنا نجد أنّ أغلبُ ما دار بين شعراء النقائض كان يصّبُ في مصلحة إحياء العصبية ومظاهرها من جديد! وأنَّ ما استندت عليه هو اجترار الماضي بكلِّ ما كان فيه من حروب وعصبيّة جاهلية؟ كل هذا يجعلنا نُسَلِّمُ إلى أنَّ النقائض في العصر الأموي، كانت استمرارا للهجاء العصبيّ في الجاهلية، عكس ما يُتداولُ من إشارة إلى أنّ أهمَّ ما أُريدَ بالنقائض في هذا العصر هو اللهو لا الجدّ، فلستُ أظنُّ ومع ما ما أوردتُ من تاريخ قبائل في شعراء النقائض، أنَّ العودة إلى ثوب العصبية التي نهى عنها الإسلام، وأنَّ التنابز الواقع بين الشعراء والذي أعاد الكثير من الخصومات بين القبائل، لا خلفية باعثة له! فمجرد التذكير بما وقع قديما في الحروب بين هذه القبائل، يدعو وبكلّ بساطة إلى بعث العصبيات والتي بدورها ستبعثُ الثارات والضغائن من جديد.

المصادر والمراجع:

[1] آبادي. الفيروز: **القاموس المحيط**. مؤسسة الرسالة. بيروت لبنان. (ط 5). سنة 2005. ص 115.

[2] ابن منظور. أبي الفضل: **لسان العرب** ، المطبعة الميرية. بولاق مصر المحمية. (ط1). ج1. سنة 1883، ص 93

[3] **السَّلَمة**: شجرة ذات شوك و ثمرته القرظ. من خطبة الحجاج بالكوفة.

[4] المصدر السابق نفسه. ص 95.

[5] بن حجاج. مسلم : **صحيح مسلم**، دار طيبة، تح: نظر بن مُحَّد أبو قتيبة، ط 1 ،سنة 2006 ،باب الإمداد بالملائكة في بدر، جزء من حديث عمر رقم 1769 ، ص 843 .

[6] ابن منظور. أبي الفضل: **لسان العرب**. مصدر . ص 92- 96.

[7] ابن منظور. أبي الفضل: **لسان العرب**. مصدر . ص 96.

[8] الجابري. مُحَّد عابد: **فكر ابن خلدون العصبية والدولة (معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي)**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، (ط6)، سنة 1994،ص 168.

[9] ابن خلدون. عبد الرحمن: **مقدمة ابن خلدون**، تح: حامد أحمد طاهر، دار الفجر للتراث، القاهرة، (ط2). سنة 2013، ص 171.

[10] **النعرة**: كهُمزة والعامّة تقول: النعرة على وزن ثَمرة: الهيجان في حرب أو شر، والقوم هاجوا واجتمعوا لمكروه أصابهم . ينظر **القاموس المحيط**، ص 484.

[11] الخضيري. زينب: **فلسفة التاريخ عند ابن خلدون**، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة. سنة 1989. ص 26.

[12] أحمد. بن حنبل: **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، الحديث رقم" 16989، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ، بيروت لبنان، ط1، سنة 1999،ص 196.

[13] الخضيري. زينب: **فلسفة التاريخ عند ابن خلدون**. مرجع سابق. ص 179 .

[14] المرجع نفسه . ص 180

[15] محمود أبو حديد. توفيق. **التعصب القبليّ في السلوك السياسيّ الفصائلي الفلسطيني وأثره على التنمية السياسية**. رسالة ماجستير. جامعة النجاح الوطنية. فلسطين. 2010. ص16.

[16] المرجع السابق. ص17

[17] المرجع نفسه. ص 18

[18] انظر. **الموسوعة العربية العالمية**: (ط2).(مج7) . السعودية: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع . 1999. ص13

[19] **التعصب القبليّ في السلوك السياسي**. مرجع سابق. ص19

[20] بكار. عبد الكريم. **اكتشاف الذات. دليل التميز الشخصي** (ط4) . دار وجوه للنشر والتوزيع. 2009. ص 55

[21] المرجع السابق. ص23

[22] شوقي.ضيف: **التطور والتجديد في الشعر الأموي**، مرجع سابق، ص187.

[23] فروخ.عمر: **تاريخ الأدب العربي**، مرجع سابق، ص 365.

[24] شوقي.ضيف: **التطور والتجديد في الشعر الأموي**، مرجع سابق، ص 162.

[25] فروخ.عمر: **تاريخ الأدب العربي**، مرجع سابق، ص 362.

[26] شوقي.ضيف: **تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي)**، مرجع سابق، ص 247

[27] شوقي.ضيف: **تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي)** ،مرجع سابق،ص 255 .

[28] المرجع السابق، ص .256

[29] الأصفهاني.أبي فرج: **الأغـــاني**، مصدر سابق، دار صادر، المجلد 08، ص .226

[30] بن غوث. غياث. **ديوان الأخطل**, شرح: مهدي مُحَّد ناصر الدين . دار الكتب العلميّة . بيروت لبنان . (ط2).(ج1). 1994 . ص96.

[31] المرجع نفسه. ص 109.

[32] المرجع نفسه. 166 .

[33] ديوان الأخطل . المرجع السابق. ص 94.

[34] ديوان الأخطل مرجع سابق . ص .110

[35] المرجع نفسه . ص 100

[36] المرجع نفسه .ص106

[37] المرجع نفسه .ص 109

[38] بن غالب. همام. **ديوان الفرزدق** . شرح: علي فاغور .دار الكتب العلمية . بيروت لبنان . (ط1) . 1987. ص 489.

[39] بن عطية الخطفي. جرير. **ديوان جرير** . دار بيروت للطباعة والنشر .لبنان . 1986. ص 362

[40] الزمخشري, أبي القاسم محمود بن عمر, **ربيع الأبرار ونصوص الأخبار**, (ج2). ص 214

[41] الأصفهاني.أبي فرج، **الأغـــاني**،مصدر سابق، دار صادر، المجلد 08، ص 211 .

[42] الأخطل:**الديـــوان** ، شرح: مهدي مُحَمَّد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط2 ، سنة 1994، ص 106.

[43] الأصفهاني.أبي فرج: **الأغـــاني**، مصدر سابق، دار صادر، المجلد 08، ص .212

[44] شوقي.ضيف: **التطور والتجديد في الشعر الأموي**، مرجع سابق، ص 167.